27 نادين جوردمير

الروائية الجنوب إفريقية الفائزة بجائزة نوبل في الأدب عام 1991م.

والتى وضعت نصب عينيها مسألة إيجاد مساحة للأدب بين السياسة ومناصرة قضايا الزنوج فى وطنها، والتفاصيل الدقيقة للحياة الإنسانية فى إبداع أدبى مكثف وصادق.

وهى الكاتبة التى آمنت بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.

«الكتابة دائماً تعتبر استكشافاً للحياة، لذا أنا أعتبر رواياتى وقصصى أعمالاً مفتوحة.. أنا أكتب عن البشر، والبشر فى غاية التعقيد والتناقض والغموض، ثمة سرّ إنسانى لا أستطيع أنْ أكتشفه، الكتابة هى محاولة للوصول لهذا السرّ الكامن فى الحياة».

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية «نادين جوردمير» Nadine Gordimer فى 20 من نوفمبر عام 1923 م فى مدينة «سبرنجو» وهى مدينة صغيرة تقع فى شمال جوهانسبرج على بعد ثلاثين كيلو متراً منها، بإقليم الترنسفال بجنوب إفريقيا .

كان والدها يعمل فى أحد المناجم «بليتوانيا» التى تركها ورحل إلى جنوب إفريقيا، أمَّا والدتها فهى من أصل بريطانى .

كانت «نادين» ترغب فى أن تصبح راقصة باليه وبدأت التدرُّب على ذلك وهى فى

السادسة من عُمْرها، غير أنَّها عندما بلغت التاسعة أصابتها مشكلات فى القلب حسب قول الطبيب ومنعها من الحركة، ولأنَّها كانت تقرأ كثيراً فقد اتجهت إلى الكتابة منذ ذلك الوقت .

تقول «نادين جورديمر» عن هذه الواقعة تحديداً : «بدأت الكتابة فى التاسعة من عُمْرى .. وقد كان حُلمى فى الطفولة أن أُصبح راقصة باليه وبدأت أتدرَّب على الرقص منذ سن السادسة .. وبعد ثلاث سنوات تعرَّضت لمشكلات فى القلب فأمرنى الطبيب بأن أمتنع نهائياً عن الرقص ولزمت الفراش والراحة وأظن أن هذا الطبيب كان مخطئاً ؛ فقد عشت حتى الآن واحداً وثمانين عاماً مليئة بالحركة ولم يحدث لى مكروه .. المهم أن هذه الراحة جعلتنى أكتب أكثر، وأنا منذ البداية قارئة جيدة .. وهكذا أصبحت الكتابة حياتى» .

الولوج إلى عالم «نادين جورديمر» الإبداعى :

«وجهاً لوجه» و« فحيح الثعبان الرقيق» أول المجموعات القصصية :

كتبت «نادين جورديمر» قصتها القصيرة الأولى وهى فى الخامسة عشر من عُمْرها، بفضل شاعر أفريكانى يُدعى «ماتيوس كريجه» الذى كتب عنها فى المجلات الأمريكية.

وفى عام 1949 نشرت أول مجموعة قصصية تحت عنوان «وجهاً لوجه»، ثم نشرت مجموعة أخرى عام 1952 م تحت عنوان «فحيح الثعبان الرقيق» .

وحتى تلك الفترة لم تكن الكاتبة، فى إبداعها، واعية لمسألة الحقوق الإنسانية التى يفتقدها الزنوج فى جنوب إفريقيا، ثم بدأت فى مراحل تالية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع من حولها .

رواية : الأيام الكاذبة :

«هيلين شو» بطلة الرواية التى تتغير قناعاتها إزاء ما يحدث للسود من قهرٍ وتنكيل.

نشرت «نادير جورديمر» هذه الرواية عام 1953 م والتي تعتبر أولى رواياتها. وعن

هذه الرواية تقول الروائية والمترجمة «ميشيل تروشان» : «رغم أن روايتها الأولى لم تكن قد اتضحت فيها رؤيتها بشكل شامل، إلاَّ أن أهميتها تجيء أنَّها رواية ذاتية، «فهيلين شو» البطلة تعيش فى مدينة صغيرة لا يمكن لأحد أن يطرح فيها سؤالاً حول المجتمع . ولم يكن أمام الصغيرة سوى أن تذهب إلى البقال لمقابلة هذا الحشد من الملونين الساخطين من معاملة البيض لهم . كانوا يتصرَّفون كأنهم كلاب تنبح بأصوات العصافير».

وقد آمنت «هيلين شو» بأفكارها من خلال زواجها من رجل متحرر، ورغم أنَّه موظف حكومة، إلاَّ أن له موقفه السياسى . وتتغيَّر قناعاتها تماماً عندما ترى رجلاً ملوناً يموت مقتولاً على أيدى أحد رجال الشرطة البيض .

رواية : عالم الغرباء :

ناشر بريطانى يسافر لجنوب إفريقيا، يُصدم فى موت صديقه الأسود فى ظروف غامضة !

فى عام 1958 م نُشرت رواية «عالم الغرباء»، حيث نرى «طوبى» الناشر البريطانى الذى يُقرر السفر إلى جنوب إفريقيا فى رحلة سياحية، لكنه يُصدم بالحالة السيئة التى يحياها السود في جوهانسبرج، ويتعرف على الحواجز العرقية الموجودة . وفى هذه الأثناء يُصادف المناضل الأسود «ستيفن» الذى يتخذه صديقاً حميماً له، ولكنه يموت على أيدى رجل شرطة أبيض، ويحاول «طوبى» معرفة سبب موت صديقه بلا فائدة !!

لقد ظهرت هذه الرواية فى وقت التحولات الاجتماعية بجنوب إفريقيا وأوضحت نوعاً من التحليل للأوضاع المكتوبة وغير المكتوبة لدى الجماعة البيضاء، وكشفت القناع عن زيف الليبرالية البيضاء وعرت سيادة النزعة العنصرية.

رواية : فرصة للحب :

حيث العلاقات الإنسانية : مُحرَّمة وممنوعة !

هذه الرواية نشرت فى عام 1963 م تدور أحداثها حول «توم» المتزوج من «لجيسى»، والذى يحاول جاهداً كتابة تاريخ قارة إفريقيا من وجهة نظر السود . أمَّا الزوجة، فإنَّها تعرف أن صديقتها «آن» تحب رساماً ملوّناً . والاثنان يعيشان فى مستعمرة من الممنوعات

والمحرمات . فلا حب مسموح، ولا علاقات إنسانية بين البيض والسود، وأيضاً بين الزنوج وبعضهم إلاَّ في حدود مُعيَّنة .

رواية : العالم البرجوازى الأخير :

إسقاط الأوهام : التيمة الرئيسة للرواية .

بدأت تطفو موضوعات جديدة على سطح الإبداع الروائى لـ«نادين جورديمر».. العنف والمقاطعة، اللذين يعتبران من علامات الطريق فى الستينيات من القرن المنصرم فى جنوب إفريقيا، حيث انعكس ذلك على رواية «نادين» : «العالم البرجوازى الأخير» التى صدرت فى عام 1966م، حيث تناقش المبادىء المثالية الساذجة، والرومانسية المزيفة للمخربين، الذين هم بالتحديد : جيش الشباب البيض، ولقد كانت النغمة الرئيسة المسيطرة على أحداث الرواية هى : إسقاط الأوهام .

رواية : ضيف شرف :

تكشف هذه الرواية عن آليات الاستعمار الجديد .

ما زالت «نادين جورديمر» تتابع الصحوة السياسية والأيديولوجية التى بدأتها فتصدر فى عام 1971 م رواية «ضيف شرف» التى تدور أحداثها فى منطقة «مستوه» الخيالية، وهى أشبه بجنوب أفريقيا، تدور أحداث الرواية حول موظف استعمارى قديم هو الكولونيل «بارى» الذى يلعب دوراً فى تحرير بعض المناطق من الاستعمار، لكنه يُصدم بآليات النظام الاقتصادى والاجتماعى للاستعمار الجديد الذى يمثله الموظفون الحاليون ببيروقراطيتهم فيتجه إلى بطل الاستقلال المُسمى«مشينا» الذى يموت على أيدى البيض.

رواية : ابنة برجر :

الفتاة «روزا برجر» التى تقرر أن تصبح مناضلة مثل أبيها :

فى عام 1974م نشرت «نادين جورديمر» رواية «المحافظ» . وفى عام 1979 م نشرت رواية «ابنة برجر»، حيث تدور الأحداث حول فتاة تدعى «روزا برجر» يموت

والدها المناضل فى السجن عقب القبض عليه، والذى ينظر إليها الناس بإجلالٍ وتقدير لأنَّها ابنة المناضل وليس لشخصها، فتتردد كثيراً فى أن تصير مكافحة ومناضلة مثل والدها . وعندما تذهب الفتاة إلى أوروبا وتلتقى ببعض المناضلين الذين يحدثونها بإجلالٍ وحب واعتزاز عن أبيها . تعود الفتاة إلى وطنها وقد قررَّت بالفعل أن تصبح ابنة المناضل فتحذو حذوه فتتسلم راية النضال.

رواية : ناس من مولاى:

حيث يصبح الخادم هو السيد بلا منازع !

صدرت هذه الرواية فى عام 1981 م وهى تدور حول زوجين من البيض يهربان إلى حدود البلاد عقب اشتعال ثورة للزنوج، وهى ثورة من خيال الكاتبة. وفى هذه الرحلة العصيبة يلعب الخادم الأسود دور المرشد، وشيئاً فشيئاً ؛ ولأنَّه يعرف الطريق يصبح السيد بلا منازع، ويُعلن فى تحدٍ صارخ أن الظروف قد تغيَّرت وأن الحياة قد انقلبت .

المجموعة القصصية : بيتهوفن كان الأسود السادس عشر:

تراث التمييز العنصري فى هذه المجموعة قد صار لاعباً أقل تأثيراً، وأكثر هدوءاً، لكنه يبقى ملحوظاً.

لم تكن «نادين جورديمر» أبداً الكاتبة التى تتصنع كلماتها، باعتبارها واحدة من أكثر الشهود تعبيراً عن الاضطراب الذى مرَّت به بلادها جنوب إفريقيا، وضعت «نادين جورديمر» نصب عينيها مسألة إيجاد مساحة للأدب بين الضربات القاسية للسياسة والتفاصيل الدقيقة للحياة الإنسانية، وهى هنا فى مجموعتها القصصية الأخيرة «بيتهوفن كان الأسود السادس عشر» وقصص أُخرى، صدرت عام 2007م، عن دار نشر Farrar Straus Giroux تواصل مشروعها الأكثر حداثة وهو المشروع الذى رأينا من خلاله انحسار موضوعات «نادين جورديمر» الجريئة والمتعلقة بالعنصرية والتاريخ إلى خلفية شخصياتها التى صارت أكثر درامية. العنوان الصادم «بيتهوفن كان الأسود السادس عشر» تقديم لا يخلو من دهاء . من العسير العثور فى محيطها الانتقائى على أية إشارة، داخل تيارها الائتلافى، ولكنه ورُغم أى شىء، تبدو القصص وكأنَّها

تتقاسم وعياً بالكيفية التى يتسرَّب بها الماضى إلى الحاضر بشكل لا مفر منه . هنا ينسلخ تاريخ أكثر تجسيداً للفردانية، المد الأكبر فى تاريخ جنوب إفريقيا - الموضوع الأثير لدى نادين - فى روايات كابنة برجر.

مصادرة أعمالها الأدبية !!

من أجل النقد اللاذع والواضح فى كتابات «نادين جورديمر» الروائية والقصصية، صادر نظام جنوب إفريقيا العنصرى ثلاثة من أهم كتبها وهى : «عالم الغرباء»، «العالم البرجوازى الأخير»، «ابنة برجر»، بحجة أنَّه هجوم شامل على جنوب إفريقيا !

«نادن جورديمر» .. والسياسة :

رغم أن أسرتها تمتعت بالثراء فإن «نادين جورديمر» منذ طفولتها وقد تصدت للتفرقة العنصرية القائمة بين البيض سكان هذه البلاد وهم يسمون بالأفريكان والسود، فنشرت مئات المقالات فى الصحف التى توضح وتحلل ما تنطوى عليه هذه السياسة من مفارقات لا إنسانية صارخة، وقدمت فى رواياتها وقصصها القصيرة صوراً نابضة بالحياة لمآسى الزنوج، ممَّا يجعلها تلقى الكثير من التعنت، فقد تعرَّضت كتاباتها للتفتيش الدائم، وصدر الحكم عليها أكثر من مرَّة بعدم مُغادرة منزلها لمدد طويلة، ولذا فإنَّها لم تغادر بلادها سوى مرة واحدة فى حياتها، وعلى الرغم من ذلك تسللت كتبها إلى الناس وعبرت الحدود وترجمت إلى لغات عدة، وقد جذبت إلى صفها العديد من الأدباء الشبان الأفريكان الذين راحوا يدافعون عن الزنوج ويجعلون من قضاياهم مادة لأدبهم .

ومع ظهور حركة الوعى الأسود فى السبعينيات من القرن المنصرم التى قادت إلى انتفاضة سويتر عام 1976م، تلك الانتفاضة التى تُعتبر علامة تحول فى النضال الإفريقى من الكفاح السلمى إلى الكفاح المسلح . انحازت «نادين جورديمر» بشكل صريح وأكثر ممَّا كان من قبل إلى قضية السود . وكشفت فراغ الليبرالية البيضاء وكانت تقول : «إننى بيضاء راديكالية من جنوب إفريقيا وأرجو ألاَّ تدعنى ليبرالية» . وقد ناصرت الزعيم «نلسون مانديلا» إبان سجنه .

ودائماً ما تقول «نادين جورديمر» عن السياسة : «السياسية تؤثِّر علينا جميعاً، البعض يقول أنا لا أهتم بالسياسة هذا فى حد ذاته موقف سياسى، نحن نتأثَّر بأسرتنا وقوانين بلادنا، ونتأثَّر بقيمنا الدينية، أنت لا تُشكِّل نفسك، بل البلد الذى ولدت فيه هو الذى يُشكِّلك، ولو ولدت مثلاً فى فترة الصراع النازى كان هذا سيؤثِّر علىَّ وعلى طريقة تفكيرى . مثلاً مشكلة العنصرية أثَّرت على كتاباتى ولكن لم أحاول أن تكون كتاباتى وسيلة لإقناع الناس بقضيةٍ مُعيَّنة، أو إثنائهم عن موقف مُعيَّن، كتاباتى يجب أن تتجاوز ذلك الموقف، وأردِّد ما قاله «جوته»: «إن الكاتب يغمس يده فى حياة الإنسان ويخرج بشىء وأيًّا كان هذا الشىء فهو جزء من الحقيقة الكبرى» .

الإيمان الكامل بحق الشعب الفلسطينى رغم يهوديتها :

حكى الروائى الكبير «بهاء طاهر» عن مشاركته فى مؤتمر «ببودابيست» عام 1988م من القرن المنصرم، وأثناء صياغة البيان الختامى للمؤتمر حاول الوفد العربى أن يُضيف توصية بحق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم، ولكن وفود أكثر من عشرين دولة رفضت الأمر وكانت «نادين جورديمر» هى الوحيدة التى ساندت مطالب العرب .

وتقول صراحة «نادين جورديمر» عن إيمانها بالقضية الفلسطينية : «عرضت وجهة نظرى فى مواقف متعدِّدة وأحاديث صحافية، أنا يهودية وأعيش فى جنوب إفريقيا ومنضمة إلى جماعة «ليس باسمنا» التى يترأسها رئيس وزراء جنوب إفريقيا السابق وهو يهودى أيضاً، وننتقد بشدة ما يحدث ضد الفلسطينيين من ممارسات.. ليس لى برنامج، أنا إنسانة ومواطنة مسؤولة، أُعبِّر عن أفكارى السياسية بطرق مختلفة، ولا أسمح أن يؤثِّر هذا على كتاباتى .

وتستطرد تقول «نادين جورديمر» فى هذا السياق : «إننى أؤمن بحق الفلسطينيين فى أرضهم وأُساعد القضية الفلسطينية بكل وسعى، وأدافع عنها بالفعل وليس بالكتابة فقط» .

«نادين» تفوز بجائزة نوبل فى الأدب :

«نادين جورديمر» من الأسماء الأدبية التى ظلت تتردد لعشر سنوات قبل أن تفوز

بجائزة نوبل فى عام 1991م من القرن المنصرم، وعندما أُعلن عن حصولها على الجائزة كان هناك شعور تام بالارتياح، ليس فقط لقيمة الكاتبة، ولكن لأن ما كانت تدافع عنه فى مسألة حقوق الزنوج فى جنوب إفريقيا قد بدأت البلاد تجنى ثماره .

لقاء السحاب .. «نادين جورديمر» و «نجيب محفوظ» فى مصر :

فى أول خروج لـ«نادين جورديمر» من جنوب إفريقيا كانت مصر الدولة التى زارتها مع زوجها الراحل فى بداية الخمسينيات من القرن المنصرم، وها هى تعود مرَّة أخرى .

الكاتب المسرحى «محمد سلماوى» هو الذى كان وراء دعوتها لمعرض القاهرة الدولى للكتاب فى فبراير 2005م، من خلال اتصال هاتفى بينهما عبَّرت فيه عن رغبتها فى زيارة الأديب العالمى «نجيب ملحفوظ» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام 1988 م .

بعد أقل من ساعتين من وصول «نادين جورديمر» إلى القاهرة كانت الكاتبة الكبيرة ومعها الكاتب «محمد سلماوى» فى بيت «نجيب محفوظ» على كورنيش النيل بمنطقة العجوزة فى الجيزة .

لم يكن هذا اللقاء الذى تم فى منزل «نجيب محفوظ» سوى درس بليغ فى السياسة أو الأدب أو غير ذلك، وإنما الأهم فى التواصل الإنسانى .

نظرت «نادير جورديمر» طويلاً فى وجه «نجيب محفوظ» قبل أن تقول له :

فى مثل هذا اليوم 29 يناير قبل واحد وخمسين عاماً تزوجت، إنَّه عيد زواجى. وقد أخذنى زوجى الراحل فى رحلة إلى مصر، وكانت أول دولة أزورها فى حياتى، والآن يا مستر «محفوظ» أشعر بأن لقائى بك الذى كنت أسعى إليه منذ سنوات هو أثمن هدية أتلقاها بهذه المناسبة .

إننى أرى دائماً أنك من أعظم المواهب الإبداعية فى العالم .. وأحتفظ بكل أعمالك فى مكتبتى مترجمة إلى الإنجليزية .. وكلَّما قرأت قصة أو رواية وانتهيت منها تأخذنى بلا وعى إلى أُخرى .

فقال «محفوظ» ومن خلال ابتسامته الودودة :

سأقدم لكِ الآن كتاباً لم تقرئيه .. فها هى النسخة الإنجليزية من كتابى «أحلام فترة النقاهة» الذى صدرت ترجمته الشهر الماضى .

ثم أهدت «نادين جورديمر» لـ«نجيب محفوظ» كتابين الأول عبارة عن مجموعة قصصية بعنوان «الغنيمة» وكتبت له إهداءً رقيقاً يكشف عن مدى تقديرها له .

والكتاب الثانى عبارة عن قصة قصيرة نشرتها فى كتاب يضم قصصاً لأكثر من عشرين كاتباً عالمياً منهم ستة حصلوا على جائزة نوبل .

obeikandl.com